مرافئُ فِي ذاكرةِ يحيى السماوي

(الحلقة الرابعة والعشرون)

لطيف عبد سالم

السَماويُّ يحيى شاعرٌ لامعٌ، أطرب محافل الثَّقَافَة وَفضاءات الأدب بإبداعِه المائز، وَعذوبة قريضه المستمد مِنْ افتتانه بالجمال، وَتشبثه بالحياة، وَتمسكه بالأمل وَالتفاؤل، وَاحترامه الإنْسَان وَحرصه عَلَى الدفاعِ عَنْ قضاياه وَالتعبير عَنْ همومِه، وَهو أيضاً عاشق لعملِه فِي التدريس، فضلاً عَنْ افتتانِه بسبرِ أغوار الحياة بمتعةٍ وشغف منذ نعومة أظفاره، الأمر الَّذِي جعل المطالعة هوايته المألوفة، فكان الكتاب - وَمَا يَزال - ملهمه الأول، يتألق دوماً مَا بَيْنَ يديه وَهو يحمله مَعَه أينما توجه فِي حلِه وَترحاله. وَليس خافياً أنَّ القراءةَ المستدامة تفضي إلى توسيعِ مدارك الإنْسَان وتجعله فِي إطلاعٍ دائم عَلَى مختلفِ التجارب، ولنا أنْ نتصورَ مدى حاجة مَنْ يمتهن الأدب وَنظم الشِعر إلى المطالعةِ الدائمة؛ لأجلِ تنمية الإبداع فِي تركيبِ الصورة الشِعرية وإثراء القصيدة بالجميلِ مِن المفرداتِ وَأكثرها عذوبة. وَتدعيماً لِمَا ذكر آنفاً، فإنَّ الأديبَ المصري عباس محمود العقاد (1889 - 1964) الَّذِي يُعَدُّ واحداً مَنْ أهمِ الأدباء الَّذين لمعت أسماؤهم فِي القرنِ العشرين، يشير إلى القراءةِ بالقول " لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً فِي تقدير الحساب .. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة، وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة، والقراءة - دون غيرها - هي التي تعطيني أكثر من حياة ". وإسرافاً فِي حبِه للقراءةِ وَشغفه بِمَا يكتنزه الكتاب مِنْ مضامين يضيف العقاد قائلاً " ليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئا جديدا، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أني تعلمت شيئا جديدا هو ما هي التفاهة ؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وفيم يفكرون؟ ".

للطبيعةِ كِتابُها :

الأشجارُ حروف ..

الأنهارُ مِداد ..

والأرضُ الورقة ..

لا أحدَ يُجيدُ قراءتهُ

كالطيورِ

والأطفالِ

والعشاق !

*****

حَطبُكِ أنتِ وليس تنّوري :

أنضَجَ رغيفَ قصيدتي ..

دُخانُ ظنونِكِ

وليس بخورُ احتِراقي :

أسالَ دموعَ حروفي ..

ريحُكِ وليس شِراعي :

أوصَل سفينتي

إلى الضّفةِ الأخرى

من نهر القلق !

لا رَيْبَ أَنَّ ميلَ السَماوي يحيى إلى المطالعةِ منذ أنْ بدأ خطواته الأولى فِي مرحلةِ الدراسة الابتدائية بتشجيعٍ مِنْ عائلته الَّتِي كانت

عَلَى شيء مِن الثقافة وَالكثير مِن الإيمان، قاده إلى سعي دائم لتطويرِ مهاراته فِي فضاءاتِ الأدب وَغيرها مِنْ قنواتِ الثَّقَافَة وَالمَعْرِفة بعد أنْ ترسخت لَديه تلك الهواية فِي مرحلةِ الدرَاسة المتوسطة، حيث أصبح قارئاً نهماً مدمناً عَلَى القراءة، محباً لها، وَشغوفاً بِه نهم. وَليس بالأمرِ المفاجئ القول إنَّ حاجَةَ السَماوي إلى غذاءِ الروح مِنْ أجلِ زيادة آفاق معرفته، وَالارتقاء بفكرِه وَسلوكه، عززت لَديه متعة القراءة وَساهمت فِي تذوقِه للمميزِ مِنْ مواردِ الثَّقَافَة وَالفُنون وَالعُلُوم الإنسانيَّة، فالثَّقَافَة الَّتِي تزين الإنْسَان كما الريش يزين الطاووس بحسبِ مثل روسي، أقرَ بأهميتِها العلماء وَالباحثون وَالمُتَخَصِّصون وَأهل الخبرة، بوصفِها ثمرة المعايشة الحية لأمورِ الحياة وَالتفاعل مَعَ تجاربها، وَمَا تباين مِنْ خبراتِها؛ لأنَّها تعبيرٌ عَنْ الواقع، وَأداة للتغييرِ وَالتطوير وَتحرير المُجْتَمَعات البَشَريَّة مِنْ عواملِ الإسْتِغلال وَالتخلف، حيث يشير مؤلف كتاب الإسلام بَيْنَ الشرق وَالغرب وَأول رئيس لجمهوريةِ البوسنة وَالهرسك بعد انتهاء الحرب فِي بلادِه الفيلسوف الإسلامي علي عزت بيجوفيتش (1925 - 2003) إلى الثَّقَافَةِ بوصفِها " الخلق المستمر للذات "، فضلاً عَن قولِه أيضاً فِي مناسبةٍ أخرى مَا نصه " الحضارة تُعلِّم أما الثقافة فتُنور. تحتاج الأولى إلى تعلم أما الثانية فتحتاج إلى تأمل "، فِيما يرى جواهر لال نهرو (1889 - 1964) أول رئيس وزراء للهند بعد استقلالها وَخلاصها مِنْ نيرِ استعباد التاج البريطاني أَنَّ الثَّقَافَةَ تُعَدُّ بوصفِها " اتحاد العقل مع الروح ". وَفِي السياقِ ذاته، يشير الروائي وَالكاتب وَالمترجم ألبرتو مانغويل إلى القراءةِ فِي كتابِه " تاريخ القراءة "، بوصفِها ضرورة للحياةِ كالتنفس ، فضلاً عَنْ تثبيتِه فِي بدايةِ كتابه آنفاً عبارة " إقرأ كي تحيا "، ولعلَّ الأمر المحير هُنَا مَا تضمنه هذا الكتاب مِنْ إشارةٍ صادمة - ربما لشعورِ المتلقي - هو أَنَّ المؤلفَ صاغ عبارته بتشكيلٍ سرديّ أميل للمبالغةِ مِنه إلى التصحرِ الثقافي فِي عالمِ اليوم، حيث يذكر مانغويل الارجنتيني المولد وَالكندي الجنسية أَنَّه

كلمـا التقـى شخصـاً أو رأى مشـهداً، شـعر أَنَّـه قـد مـر عليـه مِـنْ قبـل؛ نتيجة غزارة قراءاته.

*

لـقـلـبـي حُـجـرتـان ..

فـلـمـاذا لا يـتـسِـعُ

إلآ

لـحـبـيـبـةٍ واحـدة ؟

أنـتِ أيـضـا :

لا شـريـكَ لـك !

*

أعـرفُ تـمـامـاً أيـن يـرقـدُ " نـيـوتِـن" ..

وأيـن كـان الـحـقـلُ ..

لـكـنْ :

فـي أيِّ تـنّـورٍ انـتـهـتِ الـشـجـرة ؟

وفـي أيّـةِ مـعـدةٍ

اسْـتـقـرّتِ الـتـفـاحـة ؟

أعـرف أن الـعـبـيـدَ

هـم الـذيـن شـيّـدوا :

الأهـرامَ ..

سـورَ الـصِّـيـن ..

وجـنـائـن بـابـل ..

لـكـنْ :

أيـن ذهَـبَ عَـرَقُ جـبـاهِـهِـم ؟

وصُـراخُـهـم تـحـت لـسْـعِ الـسّـيـاطِ

أيـن اسـتـقـر ؟

بخـلافِ اعتقـاد الـبعض مِـنْ أَنَّ السَـماويَ " ولـد وفِـي فَمِـه ملعقـة مِـنْ فضـة "، فـإنَّ الواقـعَ الفعلـي، وَمَـا أفضـى إليـه بحثـي المعمـق فِـي هَـذَا المنحـى يؤكـدان أَنَّـه ابـن بِيئَـة فقيـرة وُقـد ولـد مِـنْ رَحـمِ المعانـاة، فَلَـمْ يجد نفسه فِـي بحبوحـةٍ مِن العـيش، وَلَـمْ تكـن أسـرته فـي فـيضٍ وَوفـرة منـذ ولادتـه، حيـث وصـل تنقّـل عائلتـه " أربـع عشـرة " مـرة فِـي فضـاءاتِ مدينـة السَـماوة؛ لغـرض السـكن بمنـازلٍ مـؤجرة تتناسـب مَـعَ دخـلِ والـده " رحمـه الله "، وَلَـمْ يَسْـتَقِرْ لَهَـا حـال إلا فِـي سـبعينياتِ القـرن الماضـي حـين تـرك والـده مهنـة البقالـة وَافتـتح مكتبـاً لبيـعِ الحصـى وَالرمـل، وَعمـلَ مقـاولاً ثانويـاً مَـعَ الشـركةِ الروسـية الَّتِـي قامـت بتحـديثِ معمـل سـمنت السماوة، حيـث تـولّى تجهيزهـا بهـاتين المـادّتين. ومِـنْ المعلـومِ أنَّ السَـماوةَ تُعـدّ منجمـاً لإِنْتَـاج الإسـمنت؛ بـالنظرِ لتـوفرِ المـواد الأوليـة الداخلـة فِـي هَـذِه الصِـناعة وَالمتمثلـة بحجـرِ الكلـس وَالتـراب العـادي واطـئ الكبريتـات فِـي صـحراءِ السَماوة، وَوجـود الجـبس عَلَـى ضـفافِ بحيـرة سـاوة، الأمـر الَّـذِي يلـزم الحُكُومـة المَحَلِّيَّـة المثـابرة وَالجهـد سـعياً فِـي الوصـولِ إلـى جعـلِ محافظـة المثنـى عاصِـمة العـراق فِـي إِنْتَـاجِ الإسمنت. ولعـلَّ مِـنْ بَـيْنَ الأدلـة الَّتِـي تثبـت مَـا أشـرنا إليـه بخصـوصِ نشـأة السَـماوي فِـي بِيئَـةٍ فقيـرة هـو مَـا ذكـره الأديـب سـلام إبـراهيم عَـنْ زيارتـه إلـى مدينـةِ السَـماوة للقـاءِ السَـماوي يحيـى بعـد فـراق دام بضـع سـنوات، وَالَّتِـي كـان يظـن أَنَّ مبيتـه وَصـحبه فِـي شـقةٍ موقعهـا وسـط السوق تعـود لأهـلِ

السَماوي، حيث تحدث عَنها إبراهيم بعد أربعة عقود مِنْ ذلك التأريخ بالقول " تصورت أن والد يحيى من أثرياء السماوة وعلى خلاف مع يحيى لتوجهه اليساري، وهذا ما بقى في ذاكرتي من تلك الرحلة الشبيهة بحلمٍ بحسبِه، لكن يحيى فِي لقائي بِه نهاية عام 2017م، حكى لي قصة أخرى خلال الأمسية التي أقيمت تكريماً للسماوي - يقصد أمسية بيت النخلة فِي الدنمارك - عن فقر أهله المدقع، وتنقلهم في بيوت مستأجرة ".

*

السفينةُ غرقتْ ؟

لا ذنبَ للميناءِ

إنهُ ذنبُها !

لا ذنبَ لها ..

إنه ذنبُ المجاديف !

لا ذنبَ للمجاديفِ ..

إنه ذنبُ السّواعد !

لا ذنبَ للسّواعِد ..

إنه ذنبُ الرّأس !

آه ..

كم مملكةِ عشقٍ اندثرتْ

لأنَ " رأساً " واحداً

رمى الفتيلَ في الغابةِ

لِيُذيبَ الجليدَ المُتجمِّدَ

فـي عروقـه ؟!

إذا كنـا نـركن إلـى القـولِ الَّـذِي يسـلم إنَّ الإحصـاءاتَ لا تعطـي صـورة كاملـة بوسـعِها المُسَـاهَمَة فِي فهـمِ مُشْكِلة الفَقـر، فـلا رَيْـبَ أَنَّ الفَقـرَ يُعَـدّ مِـنْ أكثـرِ الظـواهر فتكـاً فِـي حيـاةِ الأمَـم وَالشـعوب؛ إذ لا تقتصـر تـأثيرات هــذا الوبــاء الْمُجْتَمَعــي عَلَــى الحــالتينِ الاقْتِصَــادِيَة أو الاجْتِماعِيَّــة فحسـب، وَإنمـا تتعـداهما إلــى حزمــةٍ متشـابكة مِـن الآثــارِ الموجعــة الَّتِــي مِــنْ شــأنِها المُسَــاهَمَة فِــي شــيخوخةِ الْمُجْتَمَعــات الإنســانيَّة وَالتعجيــل بهلاكِهــا. وَيــرى المتخصصــون تفــرد الفَقــر كظـاهرة اجْتِماعِيَّـة تتسـاوى مِنْ حيث الشـمول فـي تعـدّيها عَلَـى حقـوقِ الإنْسَـان؛ نتيجــة تعــدد ســلبية آثارهــا الكارثيــة، وَالَّتِــي مِــنْ أكثرِهــا خطـورة عَلَـى الْمُجْتَمَـعِ البَشَـريّ هـو مَـا يخـيم عَلَـى فضـاءاتِ العِلْـم وَالثَّقَافَـة. وَبالاسـتنادِ إلـى هَـذَا الاسـتدلال يمكـن الجـزم بـأنَّ البـؤسَ الَّـذِي عاشـته الْمُجْتَمَعـات المَحَلِّيَّـة فِـي بلادِنـا كـان لَـه دورٌ مـؤثرٌ فِـي تشـكيلِ وَعيهـا السِّياسِـيِّ، وَهـو الأمـر الَّـذِي يفسـر انخـراط أبنائهـا - وَمِـنْ بَيْـنَهم يحيـى السَـماوي - فِـي صـفوفِ حركـة اليسـار العراقـي بشـكلٍ مبكـر؛ لأجـلِ تحقيـق حلـم الطبقـات المقهـورة فِـي إقامـةِ دولـة تظللهـا الحريـة وَيسودها العدل وَالرفاه.

*

هـي الـتـي

رأتْ كـلّ شيء ..

فـأخْـبَـرَتْـنـي عنـي

*

أمِـنْ مـاءِ جـسـدُك ؟

كلما حـاصرني الـعطـش

أقبّله فأرتوي !

أناملي اليبيسةُ تغدو فراشات

حين تمسّدُ ياسمينه ..

يسيلُ الضوءُ من بلّورك

مُضيئاً لشفتيّ

الطريقَ نحو حقول التين والزيتون والكرز !

*

الجالسون في الأبراج العاليةِ والقِمم

رؤوسُهم مُنحنيةٌ

لكثرة تحديقهم نحو الأسفل ..

نحن الجالسين في الأودية والسفوح

رؤوسُنا مُرتفعةٌ دائماً

لتحديقنا نحو الأعالي !

*

عَلَى الرغمِ مِنْ أَنَّ السَماويَ الَّذِي ارتشف قهوة الأدب مبكراً، عاش وَترعرع فِي كنفِ عائلةٍ كادحة وَمكافحة بالكاد توفر أدنى احتياجاتها الأساسية, فضلاً عَنْ استحالةِ إيجاد مكان ملائم فِي منزلِه - وَلو بالحدود الدنيا - يسمح لَه بممارسةِ هوايته فِي المطالعةِ وَالكتابة الأدبية، إلا أَنَّ ذلك لَمْ يحد مِنْ عزمِه فِي المثابرةِ عَلَى طلبِ العلم وَالسعي إلى الحصولِ عَلَى مواردِ المَعْرِفة، حيث كان يعمل جاهداً مِنْ أجلِ تحقيق مرامه، وَمِنْ بَيْنَ تلك السبل ذهابه مَعَ بعضِ أترابه فِي أوقاتِ الظهيرة مِنْ أيامِ الصيف القائظ إلى منزلِ صديقه الوَدُود الشاعر وَالفنان التشكيلي عباس حويجي، وَالَّذِي كان

وضع عائلتــه المــادي يتـيح لــه تنظـيم حياتــه بشـكلٍ يجعلــه قــادراً عَلَــى ابتيــاعِ الكتــب، فضــلاً عَــنْ تــوفيرِ البيئَــة الملائمــة للمطالعــةِ وَممارســة هوايتــه فِــي الفــنِ التشــكيلي، حيــث كــان دَخــلُ عائلتــه جيــداً؛ جــراء عمــل والــده فِــي تجــارةِ الحبــوب، بالإضــافةِ إلَــى أَنَّ عــددَ أفــراد عائلتــه قليــل، الأمــر الَّــذِي مكنــه مِــنْ اِسْـتِغلالِ غرفــة الضــيوف الَّتِــي يشــار إليهــا محليــاً باسْــمِ " البرانـــي " أو " الديوانيـــة " فِـــي متابعـــةِ هواياتـــه المفضـــلة وَنشــاطاته الَّتِــي يحبهــا، مَــعَ العــرضِ أنَّ تلــك الحجــرة كانــت مــزودة بمروحـــةٍ ســقفية وأرائــك خشــبية وَبَــدن - بمثابــةِ البــراد المعتمــد فِــي الوقــتِ الحاضــر - لحفــظِ المــاء بأوعيــةٍ وســط الــثلج الملفــوف بالأكيــاسِ النســيجية. وَيقينــاً أنَّ جميــعَ تلــك المــواد وَعَلَــى الــرغمِ مِــنْ بــدائيتها وَبســاطتها، لَــمْ تكــن يومــذاك متاحــة فِــي منــزلِ السَــماوي يحيــى وأغلــب مجايليه.

*

لم يكن " علماً في رأسِهِ نار " ..

لكنه مشهورٌ أكثرُ من الجميع

فهو الوحيدُ الكاملُ نقصاً

في مدينةٍ

جميعُ أهلِها ناقصو الكمال !

ظافرٌ بالرذائل كلها ..

غريبٌ عن الشرف ..

لا تحزني يا تفاحتي الحلال :

أعرفُ أنّ ماءَ غسيل ثياب المومس

أطهرُ من أن يكون حِنّاءً لشاربهِ

لكن فضلهُ على العهر كبير ..

فلولاه

ما كنا سنعرفُ

أن بعضَ المخانيثِ

يحيضون

فيطمثون من ضمائرهم !

هل كان كتابُ اللهِ

سيُقدِّسُ شهدَ النحلةِ

لولا

قذارةُ الخنزير ؟

*****

ليس خافياً أنَّ محاولاتِ السَماوي يحيى قصد تطويرِ أدواته الشِعرية وَصقل مهاراته، منحته حافزاً للتفاعلِ مَعَ عالمِ القراءة وَالأدب، حيث مَا يَزال شغوفاً بالإقبالِ عَلَى ابتياعِ الكتب الورقية، حتى مَعَ ظن الكثير مِن النخبِ الثقافية أَنَّ زمنَها انتهى. وَضمن هَذَا المعنى استوقفتني عبارة للشاعر البحريني قاسم حداد يقول فِيهَا " المعرفة التي لا تنميها كل يوم تتضاءل يوماً بعد يوم "؛ إذ أَنَّ القراءةَ بالاستنادِ إلى المُتَخَصِّصين تحفّز العقل، وتخلق الكثير مِن التجارب، فالثقافة مِنْ وجهةِ نظر الروائي والكاتب المسرحي الفرنسي - المولود فِي بيئة جزائرية شديدة الفقر مِنْ أبٍ فرنسي وَأم إسبانية - ألبير كامو (1913 -1960) هي " صرخة البشر في وجه مصيرهم ". وَالمذهلُ فِي الأمرِ هو مَا أثبتته الدراسات العِلْمِيَّة مِنْ نتائجَ تشير تحديداً إلى أَنَّ القراءةَ الأدبية تُكسب العقل وَظائف معرفية عدة، فضلاً عَنْ أَنَّ مُتعةَ القراءة تفضي بحسبِ الأدبيات العلمية إلى مضاعفةِ تدفق الدم فِي مناطقٍ عديدة مِن الدماغِ البشري، وَثَبَتَ أيضاً أَنَّ " دراسة الرواية الأدبية والتعمق

فـي التفكيـر بقيمتهـا مِـن الأعمـال الفعالـة للعقـل ". وَفِـي هَـذَا السـياق يشـير الأب الأديـب يوسـف جـزراوي إلـى صـديقِه السَـماوي يحيـى بـالقول " ينـامُ ابـو علـي وفـي عينـه قافيـة، ويفيـق وفـي بؤبـؤ عينـه الثانيـة رباعيـة. إنّـه المتـأرّق دائمًـا وأبـدًا، ينـام ولا يرتـاح. إنّـه إبـن الشـعر، إبـن الأرق، إبـن المحبـة والإبـداع العراقـي. يقـرأ كثيـراً وينـام قلـيلاً، معلّـق علـى جـدران الغربـة، غـارق فـي ذاكـرة الـوطن ". ويضـيف جـزراوي أيضـاً مَـا نصـه " ..... ولا يخفـى علـى أحـد بـأنَّ العربيـة الفصـحى ظلـت أداتـه المفضـلة لإظهـار فكـره الراقـي ونفسـه السـمحة وإيجـاد أسـلوبه الخـاص لتعبيـره الأدبـي الـذي يتسـم بالمحبـة الكونيـة. فهـو حـين يقـف علـى منصـة المنبـر تلقـاه كبلبـلٍ جـريح يُرفـرف بصـمتٍ وهـو يُغـرد اناشـيد المحبـة والسـلام، وحـين تقـرأ لـه تلـتمس اسـتعداده للتضـحية مـن أجـل الغايـات النبيلـة والأهـداف السـامية. وَيضـيف الجـزراوي أيضـاً مَـا نصـه " ولا بُـدّ لـي أن اعتـرف أنَّ الرجـلَ حـين تجمعـك بـه محطـات الوجـود سـتجده مـن الـوزن الثقيـل فـي الشـعر والثقافـة والإنسـانيّة واخلاقيـات الحيـاة ". وَفِـي المنحـى ذاتـه تخاطبـه الشـاعرة العراقيـة رنـد الربيعـي بـالقول " اسـتاذنا ومعلمنـا الفاضـل يحيـى السـماوي دائمـا حـين اقـرأ لـك اجـد كـل مـا هـو يشـبع الرغبـة الادبيـة عنـد المتلقـي ويجـد الاصـالة فـي الكلمـة والرصـانة فـي اللفظـة او المفـردة التـي تسـتخدمها فـي قصـائدك المميـزة ذات الطـابع السماوي ".

*

ثـمـة وقـوفٌ أسـرعُ مـن الـرّكـضِ ..

هـذا مـا قـالـه الـبـئـرُ لـلـجـدولِ

فـي وصـفـهِ الـنّـاعـور !

ثـمـة ركـضٌ أبْـطـأ مـن الـوقـوف ..

هذا ما قالـه جبلُ الـحقّ

فـي وصفـهِ

غزالَ الـبـاطل !

ثـمـة بيـاضٌ أكـثـرُ عُـتـمـةً

مـن قـعـر بـئـرٍ فـي لـيـلٍ يـتـيـمِ الـقـمـر والـنـجـوم :

بـيـاضُ الأكـفـانِ و" الـبـيـتِ الأبـيـض " مـثـلاً ...

ثـمـة سَـوادٌ أكـثـرُ بـيـاضـاً مـن مـرايـا الـصّـبـاحِ :

الـحَـجَـرُ الأسـودُ ومـقـلـتـاكِ مـثـلاً ..

يمكـن الجـزم بـأنَّ السَـماويَ كـان يتأمـلُ عَلَـى نحـوٍ مثمـر فِـي كيفيـةِ متابعـة مسـتقبله، حيـث كـان فِـي حلـمٍ دائـم، يَبْـدُو بمفاهيمِـه الجوهريـة متناغمـاً مَـعَ رؤيـةِ الروائـي العـالمي " بـاولو كويلـو " المولـود فِـي البرازيـل عـام 1970م، وَالَّـذِي نشـرت مؤلفاتـه فـي أكثـر مِـنْ مائـة وَخمسين دولـة، وترجمت إلـى أكثرِ مِـنْ خمسينِ لغـة، وَبيـع مِنهَـا أكثـر مِـنْ ثلاثـين مليـون نسـخة، وَالَّتِـي نصـها " لا يسـتطيع الإنسـان مطلقـاً أن يتوقـف عـن الحلـم.. الحلـم غـذاء الـروح كمـا أن الاطعمـة غـذاء الجسـم... نـرى غالبـاً خـلال وجودنـا أحلامنـا تخيـب، ورغباتنـا تحـبط، لكـن يجـب الاسـتمرار فـي الحلـم وإلآ ماتـت الـروح فينـا ". أو مثلمَـا يقـول نجيـب محفـوظ الَّـذِي يُعَـدّ أهـم الشخصـيات فِـي مجـالِ كتابـة الروايـة الَّتِـي ابتليت بالمصـائب " كيـف نضـجر وللسـماء هـذه الزرقـة، ولــلأرض هـذه الخضـرة، وللـورد هـذا الشـذا، وللقلـب هـذه القـدرة العجيبـة علـى الحـب، وللـروح هـذه الطاقـة اللانهائيـة علـى الإيمـان؟،

كيف نضجر وفي الدنيا من نحبهم، ومن نعجب بهم، ومن يحبوننا، ومن يعجبون بنا؟ "، فالسَماوي يحيى كان حريصاً عَلَى إكمالِ دراسته الجامعية فِي كليةِ الآداب ليحققَ طموحاته وَيصبح لهُ شأن فِي الحياة؛ لأنهُ أرادَ فعلاً مِنْ أعماقهِ أنْ يلبسَ ثوب التدريس، فكان لهُ مَا أرادّ بعد أنْ حصلَ غَلَى شهادةِ البكالوريوس فِي اللغةِ العربية عام 1974م، فغدا جديراً بالاشتغالِ فِي حقلِ التدريس مدرّساً لمادةِ اللغة العربية فِي " إعداديةِ السماوة "، بالإضافةِ إلى الاستمرار بِعملِه فِي ميدانِ الصحافةِ وَالإعلام. وَقد كان حقاً سعيداً وَمستمتعاً فِي ممارستِه لِمهنةِ التدريس الَّتِي أحبها، وَشغفَ بِهَا حتى حدود العشق، حيث كان يحاور طلابه، ويعيش معهم، متقمصاً أعمارهم وَمستوياتِ وَعيهم؛ إذ كانت علاقته الإنسانيَّة بِهمْ تُنسيه الكد وَالتعب اليومي، وَمَا يَزال للآن مؤمناً بتلك السجية المستنيرة عَلَى الرغمِ مِمَا جلبت لَه لاحقاً مِنْ مُشكلاتِ مَعَ بعضِ الإدارات المدرسية، حيث كانت إحداها السبب فِي نقلِه إلى ثانويةِ التحرير بمدينةِ السماوة، فالسَماوي يحيى كمَا وصفه الأب الأديب يوسف جزراوي بالقول " إنَّ السماويّ يحب العربية ويتقنها حدّ الإبداع، ولا يرضى بسواها لكتابة أدبه الغزير... هو نجمةٌ مضيئةٌ ومشعةٌ في سماء الأدب العربي المُعاصر، سراجه لا ينضب زيته، ولا تنطفئ فتيلته، سكب معاناته الإنسانيّة والوطنية في قصائدَ حلّق خلالها بأجنحةٍ لا تحدها سموات، عصرَ فيها قلبه، ومنح من وهج شرايينه كتابات أفرغها في قلبِ القارئ العربي، ليعطيه طاقة روحيّة، وهو يترجم له أحاسيسه ومعاناته، بل قُلْ أحزان شعبه ومحنة بلده " وَيضيف أيضاً " هو شاعر وَأديب وَناقد وَباحث، يمتشق القلم لينشر مبادئه وقناعاته المُختمرة بفرن الاعماق بلغةٍ تشد القارئ وتحفر الإبداع فيه، لغة يعجنها ويصقلها لتأتي طوّاعة بين يديه، فميزته لا تكمن في تمكنه من اللغة العربية وحسب، بل في القدرة على استخراج تركيبات لغوية ساحرة. فعندما تتزاوجُ لغة الإبداع بصاحبها فإنّه من غير شك ستولدُ القصيدةُ ويولدُ النصّ الأدبيّ وتولد القطعة النثرية بأبهى حلّة، وكيف إذا كانَ المبدعُ قد انغمسَ في تفاصيل

عالقة في جسد الذاكرة لتكتب همّ الوطن ومعاناة الشعب من حاكم أرعن وساسة لا يفقهون من الحياة إلآ الفساد والقتل والتعصب ". وَمثلمَا أشار إليه الشاعر الدكتور ابراهيم الخزعلي بالقول " إن الأعمال الخالدة في الأدب، هي تلك التي تحتوي على مضامين انسانية نابعة من أحاسيس صادقة ممزوجة بالألم والمعاناة، وليست تلك الأشكال الجمالية التي لا تحتوي على أية قيمة مضمونية، أو بعيدة عن المصداقية، وهي مجرد ترف برجوازي .. فمن يقرأ السماوي إنساناً ونتاجا، لم يجد فارقا بينهما .. فالسماوي هو نتاجه، ونتاجه هو السماوي، وهذه هي قمة القيمة الإبداعية ". كذلك أشار إليه قارئ كريم اسْمه علي موسى - يَبْدُو أنَّه كان عَلَى معرفةٍ قديمة بِالسَماوي - بمداخلةٍ نشرت فِي أحدِ المواقع الإلكترونية بالقول " قامة شامخة وشاعر كبير عراقي أصيل، وطني حد نخاع العظم، صامد كالجبل الأشم، لم يتغير، ولم ينحن لجنس بشر، محب للجميع، رقيق الاحساس، شفيف عذب حلو المعشر، أبي النفس ".

مُتَّهَمٌ بيقيني في محكمةِ الظنون ..
حزني الشّاهدُ عليَّ
وليس من فرحٍ يُدافِعُ عني !

أيها الرّاعي أعِرني مزمارَك
لأنشَّ بهِ ذئابَ الوحشةِ
عن بقايا خِرافِ طمأنينتي !

*

منذ دهورٍ وهو يصرخ ..

لم يسمعه أحد

ليس لأنه يُصفق بيدٍ واحدةٍ ..

ولا لأنه مثقوبُ الحنجرة ..

إنما

لأنهم اعتقلوا الهواءَ

في قاعةِ الوطن

*

كلُّ ضغائن العالم

أضعفُ

من أن تهزمَ

قلبين مُتحابَّين

بالاستنادِ إلى مَا تيسر لَيَّ مِنْ شهادات، وَلاسيَّما أحاديث طلبته الَّذين ارتقى الكثير مِنهم سلالم التطور فِي مَا تباين مِنْ ضروبِ الأدب، مَا أظنني مبالغاً إنْ قلتُ أَنَّ عشقَ السَماوي للتدريس انعكس بصورةٍ إيجابية عَلَى تطويرِ الأداء فِي حقلِ التَّرْبِيَة بِمدينتِه، فضلاً عَنْ محاسنِه للطلبةِ الَّذين غرس فِي نفوسهِم بذرة القدرة عَلَى النجاح والسعيّ الحثيث لتَنْمِيَةِ مواهبهم وَتطوير قدراتهم، حيث تعودوا عَلَى النظرِ إلى الدراسةِ بطريقةٍ إيجابية؛ مكنتهم لاحقاً مِنْ التبحرِ فِي بطونِ كتب العُلُوم وَالتمتع بالتجوالِ فِي سوحِ الثَّقَافَة

وَالفُنون. يضاف إلى ذلك انعكاس برنامج العمل هَذَا عَلَى أساليبِ التعامل مَعَ أقرانِه مِنْ المدرسين. وَتدعيماً لِمَا ذكر آنفاً، فإنَّ السَماويَ وَمِنْ خلالِ استعراض مَا أُتيح لَيَّ مِنْ أقوالِ بعض مجايليه وَالنظر فِي شهاداتِ آخرين مِنْ طلبته، أبدع فِي أدائِه كمدرس للُغَةِ العربية. ولعلَّ مِنْ بَيْنَ أبرز وَأهم الدلائل عَلَى إبداعه هو اعتراف مُدِيرِيَّة الإشراف التَرْبَويّ فِي محافظةِ المثنى بالنهجِ الَّذِي اختطه فِي طرائقِ التدريس؛ إذ أوكلت إليه أكثر مِنْ مرةٍ مهمة إقامة دروس نموذجية لطلابه يحضرها مدرسو وَمدرسات اللغة العربية فِي المحافظة، وَلاسيَّما فِي درسِ النحو، حيث كان يقوم بتأليفِ قصيدةٍ تتضمن أبياتها مَوْضُوع الدرس، وَمِنْ خلالِ شرح القصيدة يتم استنباط القاعدة النحوية، كما يتم معرفة بحر القصيدة وَتبيان السمات الأسلوبية وَالبلاغية، بالإضافةِ إِلَى رسمِ مواضع الهمزة وما الى ذلك؛ فأصبح " الدرس النحوي " درساً فِي " النقدِ وَالبلاغة وَالمطالعة " مَعَ حرصه - المتعمد - عَلَى إنسانيَّةِ النص وَإشاعة الفكر الإنسانيّ التقدمي وَثَّقَافَة المَحَبَّة وَالتسامح كبديلٍ للأمثلةِ الجامدة وَالشعارات الَّتِي كان يتضمنها كتاب القواعد أو النحو.

فِي وقتٍ لَمْ يعد فِيه بيتُ شعر أحمد شوقي المشهور " قُمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيلا... كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا "، حاضراً فِي أذهانِ الكثير من التربويين فِي بلادِنا؛ لِتيقنهم مِنْ أنَّهُ أصبح فِي خبرِ كان بوصفِه مِن الأبياتِ الشِعرية الَّتِي لا ينسجم مضمونها مَعَ مَا يجري حالياً فِي أروقةِ مدارسنا بفعلِ تمرد الطلبة عَلَى أساتذتِهم وَعدم مَنحهم المستوى المطلوب مِنْ " التقديرِ وَالاحترام " بتشجيعٍ مِنْ بعضِ أولياء الأمور المتفاعلين مَعَ فوضى ديمقراطية المحتل، وجدت مِن المناسبِ استعراض بعض مناقب السَماوي التَرْبَوِيَّة، فالمذهلُ فِي الأمرِ أَنَّ مهنةَ التدريس أكسبت السَماوي صداقات واسعة وَحميمة مَعَ الطلاب، وَأكاد أجزم أن هَذَا التفاعل الإيجابي كان مِنْ بَيْنَ الأسباب الَّتِي حببت الأدب لعددٍ كبير مِنْ طلابه الَّذين أصبح لبعضهم اليوم حضوره الكبير فِي المشهد الإبداعي العراقي كالأدباء وَالشعراء قاسم والي، إياد أحمد هاشم، نجم عبيد عذوف،

باقر صاحب، كاظم الحصيني، الدكتور عبد الرحمن كاظم زيارة، الشهيد المناضل كاظم وروار وغيرهم كثيرون.

سَحَبَتْني من مرايا شُرفةِ الفندقِ نحو القاعِ صخرةْ

فتشبَّثتُ بحبلٍ من دخانٍ كلما أنفثُهُ :
ينفثني آهاً وحسرةْ

فتلاشيتُ كما في البحرِ قطرةْ

أيها العابرُ من فضلكَ : هل ألقيتَ نظرةْ

حولَ هذا البحرِ والشرفةِ والشارعِ والبئرِ
فإني ضائعٌ أبحثُ عني منذ أنْ سَلَّمَ وادي النخلِ للعاصين أمرَهْ

لم أجدني في دجى البئرِ وبطنِ الذئبِ والحوتِ
فهل فتَّشتَ عني ؟
إنني الأعمى الذي هيَّأ قبلَ الموتِ قبرَهْ

كان السَماوي صادقاً فِي مهمته التَرْبَوِيَّة وَالمتمثلة فِي سعيِّه الحثيث للمُسَاهَمَةِ بِبناءِ أجيالٍ محصنة بالعلمِ وَمدركة لقيمةِ الثَّقَافَة وَتأثيرها، بَيْدَ أنَّ كُلَّ مَا فعله لَمْ يكن ذا أهمية فِي صلبِ تفكير إدارة تَرْبَوِيَّة

تَنْهَل مِنْ معينِ النظام الشمولي فكراً وَممارسة، حيث فوجئ بقرارِ نقله مِنْ الآفاقِ الَّتِي يجد نفسه فِيها إلى " مُدِيرِيَّة بَلَديَّة السَماوة "، موظفاً لا عمل له. وَبعد مضي سنة دراسية كاملة قضاها فِي العملِ بمُدِيرِيَّةِ البَلَديَّة، استعاد السَماوي يحيى فرحاً صُودِر منه كيدا فِي أعقابِ إعادة خدماته ثانية إلى قِطاعِ التَّرْبِيَة بسببِ حاجة التَّرْبِيَة يومذاك إلى المدرسين. وَقد مكث فِي التدريسِ سنوات عدة، حتى شروع النظام الحاكم فِي التعاملِ مَعَ هَذَا القِطاع الحيوي بالاستنادِ إلى نهجِ " التبعيث ". وَحين أعلن السَماوي امتناعه عَنْ الإنتماءِ للحزبِ الحاكم، تم نقله وظيفياً إلى مكتبِ " بريد السَماوة " ليمارس فِيه وظيفة " رزّام رسائل "، عَلَى الرغمِ مِنْ أَنَّه كان باعترافِ " مُدِيرِيَّة الإشراف التَرْبَوِيّ " وَإدارة المدرسة وَطلابه، مدرساً ناجحاً لدرجة أنَّ مُدِيرِيَّةَ الإشراف التَرْبَوِيّ كانت تكلّفهُ سنوياً بإقامةِ درسٍ نموذجي لطلابِه، بحضورِ مدرسي وَمدرسات المحافظة؛ إذ فوجئ ذات صباح بأمرٍ صادر مِنْ " مُدِيرِيَّةِ تَّرْبِيَة محافظة المثنى " بإنهاءِ علاقته بالتدريس؛ إستنادا للأمرِ الوزاري " المرقم 42051 وَالمؤرخ فِي الثالثِ مِنْ تموز عام 1980م "، وَ الَّذِي يقضي بنقلِ خدمته الوظيفية مِنْ " مدرس " إلى " رزّام رسائل " فِي مكتبِ بريد السَماوة. وَالمذهلُ فِي الأمرِ أنَّ السببَ المعلن فِي أمرِ نقل خدماته - وَعدد آخر مِنْ زملائِه - هو مقتضيات " المصلحة العامة "، إلا أَنَّ غيرَ المعلن هو : رفضه وَزملائه الإنتماء لحزبِ البعث الحاكم.

لستُ وحدي أجلسُ الان على ساحلِ " هِنْلي بيجْ "

أرمي الموجَ والرملَ بأحجارِ النَدَمْ

لستُ وحدي فأنا في قلبيَ اللهُ

وفي عينيَّ بحرٌ

ويدي تحملُ أوراقاً وتبغاً وقلمْ

وبأعماقي جبالٌ من همومٍ

وسهولٌ من ألمْ

لستُ وحدي ..

إنني فردٌ ولكنْ بين أضلاعي شعوبٌ وأممْ

كيف أشكو وحشةَ الوِحدةِ والبحرُ صديقي

ونديمي الصمتُ ..

هل يشكو صريرَ الريحِ مزمارُ الأصَمّْ ؟

الشابُ الثوري المهووس بالثورةِ الَّتِي أكلت نفسها فِي مطلعِ ستينيات القرن الماضي، وَالَّذِي وصفَه - بعد عقود مِنْ تلك الأيام - الأب الأديب يوسف جزراوي بالقول : " السَماوي كالحجر الذي رفضه البناؤون وأصبح رأسًا للزاوية "، انتظم في مهنةِ رزم الرسائل بمكتبِ بريد السَماوة - لا عَنْ رضىً وَلا طيب خاطر - بعد أنْ تسببَ وعيه الوَطَنِيّ وَانغماسه فِي حركةِ اليسار عيشه خارج أسوار بيئَة التَّرْبِيَة الَّتِي أحبها وَشغف بفنونِها حد العشق، فضلاً عَنْ مثابرتِه وَجهده الكبير، ومَا مِنْ شأنه الإثقال عَلَى أسرتِه مِنْ أجلِ التشرف بالانتماءِ إلى أروقتها ورسم ملامح الإبداع فِي فضاءاتِها، بَيْدَ أنَّ التضييقَ عَلَيه وَجعله بعيداً عَنْ طلبتِه، فضلاً عَنْ وضعِه تحت أنظار عسس السلطة ومخبريها السريين وَكتاب التقارير الإخبارية، لَمْ يبعده عَنْ همومِ شعبه، فكانت سياط أمن السُّلطة الَّتِي تجرى عَلَى ظهورِ آلاف العراقيين المطالبين بالكرامةِ وَالحريةِ تترك ندبات عَلَى جسمِه وَتعرج أخاديدَ عَلَى وَجهه.

قالَ ليْ الأعمى : أنا أرضٌ يبابْ

ليس يعنيني إذ أشرقتِ الشمسُ

أو البدرُ عن الشرفةِ غابْ

مـا الـذي تـخـسرهُ الـصحـراءُ إنْ جَفَّ الـسـرابْ ؟

السَـماوي يحيـى وجـد نفسـه ثانيـةً بعيـداً عَـنْ تـدريسِ طلبتـه أعـلام الشـعراء العـرب كـالمتنبي وَالبحتـري وَامـرئ القـيس وَأبـي تمـام وَالنابغـة الـذبياني وَالمعـري وَابـن الرومـي وَغيـرهم، بعـد أنْ أنيطـت بـه مهمـة لا تمُـت إلـى المؤهـلِ العلمـي فِـي مجـالِ اختصاصـه أو نشـاطاته المَعْرفيـة وَاهتماماتـه الأدبيـة بـأيِّ صـلة؛ إذ أجبـر عَلَـى العملِ فِـي عـزلِ الرسـائل وَرزمهـا فِـي أكيـاسٍ قبـل أنْ يبعثهـا بنفسِـه - وَأحيانـاً سـائق الـدائرة أو عامـل الخدمـة الَّـذِي يشـار إليـه محليـاً باسْـمِ الفـرّاش - لـيلاً إلـى محطـةِ القطـار مِـنْ أجـلِ إرسـالها إلـى المـدنِ الأخـرى. وَأدْهَـى مِـنْ ذلـك أَنَّ السَـماويَ لَـمْ يسـتقر بِـه الحـال هكـذا طـويلاً؛ إذ سـرعان مَـا أصـبح مكـبلاً بقيـودِ العزلـة القسـرية عنـدما جـرى نقلـه إلـى وظيفـةِ " أمـين مخـزن القرطاسـية "، وَالَّتِـي يقتصـر واجبـه فِيهـا عَلَـى تجهيـزِ مكتـب البريـد بـالورقِ وَأقـلام الحبـر الجـاف وَبقيـة القرطاسـية، حيـث كانـت معاناتـه حمـلاً ينـوء بِـه ظهـره؛ لأَنَّ ذلـك المخـزن لَـمْ يكـن إلا عبـارة عَـنْ غرفـةٍ ضـيقة معزولـة مِـنْ أجـلِ عزلـه عَـنْ بقيـةِ المـوظفين وَالموظفـات. وَعَلَـى الـرغمِ مِـنْ أنَّ لقسـوةَ تلـك الأيـام وقعـاً فِـي ذاتِ السَـماوي، فقـد كـان هنـاك مِـن المواقـفِ مَـا اختـرق جـدران عـذاباتها بلمسـةِ جمـالٍ إنسـانيَّة تعكـس الأمـل وَتـدفع للتسـامحِ والتكافـل وَالمـودة الَّتِـي بوسـعِها المُسَـاهَمَة فِـي زرعِ الثقـة بقلـوبِ الآخـرين، وَرُبَّمـا القـدرة عَلَـى التـأثيرِ فِـي إعـادةِ النظـر بالحيـاة وَتغييـر بعـض المفـاهيم، وَلا أدلَّ علـى ذلـك مِمَـا جعـل إحـدى زميلاتـه فِـي دائـرةِ البريـد تضـمين محتويـات حقيبتهـا اليدويـة " أبـره وَخـيط وَأزرار "؛ لأجـلِ إصـلاح ملابسِـه الممزقـة بفعـلِ مَـا يتعـرض لَـهُ مِـنْ ضـربٍ وَركـلات وَغيرهَـا خـلال حفـلات الاسـتجواب شـبه الشـهرية فِـي دائـرةِ أمـن البلـدة، فضـلاً عَـنْ تمكنـه مِـنْ كسـبِ وَد المـوظفين وَالعمـال هنـاك؛ إذ عَلَـى الـرغمِ مِـنْ العزلـةِ الَّتِـي فرضـت عَليـه، فـإنَّ بعضَـهم اصـبح متعاطفـاً مَـعَ الحـزبِ الشـيوعي، فكـان السَـماوي يبـيعهم خلسـة جريـدة " طريـق الشـعب " وَمجلـة " الثقافـة الجديـدة "، مَـعَ العـرضِ أنَّـه كـان شـديد الحـذر فِـي التعامـلِ مَـعَ الآخـرين؛ لِعلمـه بوضـعِه تحـت مراقبـة أجهـزة أمـن النظـام

وَعسسه. وَضمن هَذَا الإطار للسَماوي يحيى قول جميل نصه : " نحن - الصعاليك - مثل نبات الأثل، نزداد انتشاراً وَتوغّلاً فِي الأرضِ كلما حاولتْ مناجل الجبابرة اجتثاثنا ".

الليلُ مصلوبٌ على نافذتي
والفجرُ يرتدي عباءةً من الغيومْ

جَفَّ بريقُ البدرِ - في عينيَّ - والنجومْ

وها أنا : مئذنةٌ صامتةٌ
وضحكةٌ حَزَّ صداها خنجرُ الوجومْ

لابُدَّ من خمرٍ جديدٍ غير خمرِ التمرِ والتفاحِ والكرومْ

خمرٍ إذا شربتُهُ أصحو - ولكنْ تسكرُ الكأسُ -
وتنجلي بهِ الهمومْ

عَتَّقَني في طيشِهِ أمسي
وعَتَّقتُ غدي في غفلتي ..
فهل أنا " ثمودُ " ؟ أمْ " سدومْ " ؟

إذا كـان بمقـدوري اسـتعارة المعنـى مِـنْ بيـتٍ شـعري لأبـي الطيـب المتنبـي نظمـه قبـل أكثـر مِـنْ ألـفِ عـامٍ عنـد خروجـه مِـنْ مصـر عَلَـى أيـدى جماعـة مِـنْ قطـاعِ الطـرق كـان قـد هجـا كبيـرهم بقولـِه : " وَكَـمْ ذَا بِمِصْــرَ مِــنَ المُضْــحِكَاتِ .. وَلَكِنَّــهُ ضَــحِكٌ كَالبُكَــا "، فــإنَّ مِــنْ المضـحكاتِ المبكيـات الَّتِـي يمكـن أنْ تُسـاهم فِـي رسـمِ صـورة للواقـعِ العراقـي أيـام النظـام السـابق هـو أنْ يغـادرَ السَـماوي يحيـى مربـي الأجيـال - قسـراً أيضـاً - وظيفتـه الَّتِـي كـان يعـاني فِيهـا العزلـة وَيجبـر لتأديـةِ خدمـةِ " الإحتيـاط " فِـي محرقـةِ حـرب الخلـيج الأولـى، فِـي زمـنٍ كــان يُعفــى فِيــه المــدرس مِــنْ هــذه الخدمــة، حيــث كــان أقرانــه مِــن المدرسـينِ وَالمعلمـين يعيشـون بعيـداً عَـنْ جبهـاتِ المـوت وَخنادقهـا بفضـلِ قـرارِ النظـام اسـتثناء المدرسـينَ مِـنْ مواليـد عـام (1949) مِـنْ أداءِ الخدمــة العســكرية كجنــود احتيــاط، فكــان أنْ ســيقَ إلــى مطحنــةِ القادسـية ليبقـى ثمـان سـنين؛ بـالنظرِ لـزوالِ العـذر الرسـمي الَّـذِي يوجــب أنْ يكــون المســتثنى منتظمــاً فِــي قِطــاعِ التَّرْبِيَــة وَالتَّعْلِــيم، والمتأتي مِنْ رفضِه خيانة مبادئه وَالانتماء لحزبِ البعث.

لأنَّ عيـنـيـكِ عـمـيـقـتـانِ عُـمْـقَ الـكـاسْ :

صـرتُ " أبـا نـؤاسْ " !

*

لأنَّ عيـنـيـكِ حـديـقـتـايَ فـي الـيـقـظـةِ

و " الـبُـراقُ " إنْ أسـرى بـيَ الـعـشـقُ إلـى جـنـائِـنِ الأحـلامْ :

صـرتُ نـديـمَ الـوردِ والـطـيـورِ

والـسّـادِنَ فـي مِـحـرابِ شـيـخـي " عُـمَـرِ الـخَـيّـامْ "

*

لأنَّ عينيكِ بُحَيْرَتانِ من ضوءٍ تشعّان بكلِّ الفصولْ :

صارَ فمي مِئذنةً تمَجِّدُ السّنبلَ في الحقولْ

*

ليس خافياً أنَّ ركونَ السلطة إلى قرارٍ " أسطوري " يقضي بتحويلِ تَرْبَويٍّ حاذق - يعتمد نظم الشعر لغة مَعَ البِيئَة الَّتِي يعيش فِيهَا وَيتواصل بِه مَعَ البَشَريَّة - إلى رزامِ رسائل، يعكس مِنْ دُونِ أدنى شك أنَّ متخذه لَمْ ينل الحد الأدنى مَن الأهلية، وقد زُجَ فِي أروقةِ إدارةٍ مهمة لا يفقه فيها شيئًا. ولعلّ مِن المناسبِ اليوم، وَنحن فِي رحابِ استعراض بعض ذكريات تلك الأيام الإشارة هُنَا إلى أنّ تقدمَ الأمَم وَالشعوب يعود إلى طبيعةِ معطيات الإدارة المعتمدة فِيها، حيث أَنَّ بوسع الإدارة العِلْميَّة إنجاح المُنَظَّمَات داخل المُجْتَمَع؛ نتيجة مقدرة آلياتها عَلَى اِسْتِغلالِ المَوارد البَشَريَّة وَالمادِّيَّة بفاعليةٍ وَكَفاءَة عالية. وَمصداقاً عَلَى مَا تقدم يمكن الاستشهاد بكثيرٍ مِن الدولِ الَّتِي تمتلك المَوَارد المَالِيَّة وَالبَشَريَّة، لكنها مَا تزال منضوية تحت خيمة الدول المتخلفة بسببِ النقص فِي خبراتِها الإدارية. يُضافُ إلى ذلك أنَّ نجاحَ خطة التَّنْمِيَة الاقْتِصَادِيَة وَالاجْتِماعِيَّة، وَتحقيقها لأهدافها يتوقف عَلَى حُسنِ استخدام مَا مُتاح مِن المواردِ المادِّيَّة وَالبَشَريَّة.

*

لأنّ عينيكِ وديعتانِ كالأطفالِ في مدينتي ..

تضاحِكانِ النخلَ في البستانِ والنجومَ في السماءْ :

صرتُ مياهاً فابْعثيني للعطاشى ماءْ

*

لأن عينيكِ تحِبّانِ السّنا

وتكرهانِ الدمَ والخنجرَ والبارودَ والظلامْ :

غنّيتُ للعشقِ وللأطفالِ والسّلامْ

*****

لأنني ابتدأتُ منكِ رِحلةَ المعراجْ :

دعوتُ أنْ يُورِثَني مصيرَهُ " الحلاّجْ " !

لَمَا كانت الإدارة تشكل عصب الدَّوْلَة وَالسُّلطة، وَتجسيدها الأمثل، فإنَّ الإدارةَ السليمة تفرض عَلَى المدراءِ وضعِ الشخص المناسب فِي المكانِ المناسب؛ تحقيقاً للعدالةِ وَمراعاةً لظروفِ العمل وَمتطلباته، إلى جانبِ قدرات الفرد وَإمكانياته. وَيَبْدُو جلياً أنَّ صاحبَ ذلك القرار " المعجزة " لَمْ يصل للإدارةِ بالاستنادِ إلى كفاءته أو خبرته، وَإنما أرتقى سلالم المنصب الوظيفي بأجراءٍ إداريٍّ خاطئ أو بمحضِ الصدفة أو بانتهاجِ سبلٍ لا تقيم وزناً للإمكانات، وَلا تعول عَلَى مَا يلزم مِنْ مهارات. وَلا أَكتُمُ سراً عندما أقولَ أَنَّ مِنْ بَيْنَ أهم العوامل الَّتِي أثارتني للحديثِ عَنْ تلك الحادثة المؤلمة الَّتِي تجرع مرارتها الكثير مِنْ الوطنيين وَالاحرار هو التخبط الَّذِي يخيم عَلَى المشهدِ السِّياسِيِّ المَحَلّيّ؛ نتيجة لافتقارِ القيادات الإدارية إلى التَّخْطِيط المنظم وَالمتقن الَّذِي يرتكز عَلَى فهمٍ عميق لأهميةِ عملية التَّنْمِيَة وَدورها المرتجى فِي مهمةِ بناء الإنْسَان وَرقيه وَتطوره، بالإضافةِ إلى مَا مِنْ شأنِه النهوض بالبلادِ اقْتِصادِياً وَاجْتِمَاعِياً وَثقافيا، وَصولاً إلى النهضةِ الحقيقية الشاملة. وَلعَلَّ فِي مقدمةِ تلك الاخفاقات هو الخيبة فِي مواكبةِ التطوير بمختلفِ جوانب العملية التَّرْبَوِيَّة وَالتَّعْلِيمِيَّة، بِمَا يضمن تبني المتفوقين وَالنابغين وَدعمهم؛ لأجلِ تمكينهم مِنْ تطويرِ ملكاتهم

وَتنمية قدراتهم بِمَا يُساهِمُ فِي الارتقاءِ بالبلاد. وَليس أدل عَلَى ذلك مِنْ أَنَّ أستاذَ اللغة العربية الَّذِي قدر له أنْ يعملَ فِي رزمِ الرسائل مرغماً، لَمْ يقتصر عطاؤه عَلَى تركِ بصمة فِي المشهدِ التَرْبَوِيّ العراقي، حيث مكنه مداد يراعه أنْ يصبح بعد سنوات أحد أهم العنوانات داخل الخارطة الشعرية العَرَبِيَّة بفضلِ تنوع نتاجه الشِعريّ مَا بَيْنَ القصيدة العمودية الَّتِي عشق كتابتها منذ بداياته الأولى وَمَا بَيْنَ القصيدة الحرة الَّتِي يتنقل فِي تفاعيلها، فضلاً عَنْ تخطي صيته وَشهرته الصعيد المَحَلّيّ وَالعربي، مثلما يشهد بذلك المترّجَم مِنْ أعماله إلى لغاتٍ عدة، إضافة إلى الرسائلِ وَالأطاريح الجامعية لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه في جامعاتٍ إيرانية وهندية؛ بالنظرِ لكونِ مضامين أعماله الشِعرية نابعة مِنْ إحساسٍ صادق وَعميق مفعم بالحبِ وَالجمال واحترام الإنْسَان وَالدفاع عَنْ قَضايَاه.

إنَّ لقاءً قصيراً

يمنعُ زَعَلاً طويلاً ..

فتصدَّقي عليَّ ولو بـ " شِقِّ ليلةٍ "

أشربُ فيها خمرَ أنوثتك بكأس رجولتي

كلُّ قُبلةٍ تتصدَّقينَ بها عليَّ :

سأجزيكِ بعشرةِ أمثالِها

ذات سَماوة، سأل السَماوي وَالده : " هل جرّبت الجندية يا أبي ؟ ". وَمِنْ دُونِ حاجة الحاج عباس " طيب الله ثراه " إلى وقتٍ للتفكير أجابه على الفور : " نعم يا ولدي... حاولت التملص منها فلم

أستطع؛ لأنّيَ لم أكن وحيد العائلة فأعفى، ولا ثرياً فأدفع البدل النقدي..! ". وَمِنْ المؤكّدِ أنَّ كلماتَ الحاج عباس كانت أكثر مِنْ إجابة عَلَى سؤال، فالمتمعن بمضمونِها الإنساني يعي جيداً أَنَّ الدفاعَ عَنْ الوطنِ محصور بالفقراء. ولأَنَّ جوابَ الوالد كان بمثابةِ صفعة لولده، سأل يحيى والده ثانية ببراءةِ الفتوة : " لكن الفقراء لا يملكون بيوتاً فخمة وسيارات ونقوداً كثيرة .. المفروض أنْ يكون الأثرياء أكثر دفاعاً عن الوطن؛ لأنهم تنعّموا بخيراته... أليس كذلك يا أبي؟ "، إلا أَنَّ الجوابَ كان بحاجةٍ إلى تفكيكٍ لألغازه فِي ظلِ مَا اكتنفه مِنْ غموضٍ أوقع الفتى السَماوي فِي حيرةٍ مِنْ أمره، حيث أجابه الحاج عباس بِمَا نصه : " سيأتيك القوس بلا ثمن فاهتمْ بدروسك! ". ولقد جاء القوس فعلاً، لكنه كان بأثمانٍ باهظة، وَليس مِنْ دُونِ ثمن كما اعتقد السَماوي. وَأنا أتأمل بعض تداعيات " قوس " السَماوي يحيى، لا أعرف كيف قفزت إلى خاطري إحدى رسائل الروائي وَالصحفي الفلسطيني غسان كنفاني (1936 – 1972) إلى الأديبةِ السورية غادة السمان، وَالَّتِي نصها " ويبدو أنَ هناك رجالا.. لا يمكن قتلهم إلا من الداخل ".